في بنـــاء الهويـــات
أرخنـــة الأسطورة المدججـــة

د/ منير السعيداني
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قســم علــم الاجتمــاع
جامعة صفاقس- تونـــس

ملخــص:

"إن الجيش الإسرائيلي هو خير مفسر للتوراة " بن غوريون

عرفت قطاعات واسعة من الفكر السياسي العربي في العقد الأخير ميلا قويا نحو ابتداع توجهات ومفاهيم وصور وأوصاف غير معهودة فيما يخص الصراع العربي الصهيوني و تبنيها و استخدامها على نطاقات متصاعدة الاتساع و التأثير و بما مس الآداب" العلمية " و السياسية و الصحفية و غيرها بحيث مثل علامة على تحول حاد في الفكر العربي. و ليس بخاف أن ذلك تزامن مع انطلاق محاولة تسوية ذلك الصراع سياسيا بشقيها العلني و المخفي. و قد كان أبرز ما اختلفت فيه تلك العملية عن سابقاتها أنها تمكنت من موطئ قدم داخل بعض قطاعات حركة التحرير الوطني الفلسطيني. ولقد كان من نتائج ذلك أن بات ما كان يعد من " بديهيات " التحليل السياسي لمفردات الصراع محل أخذ ورد ومناقشات عدت من قبيل التراجعات عند البعض و من قبيل تجاوز البالي عند البعض الآخر.

كانت تلك التحولات على علاقة عضوية بالإجابة عن جملة من الأسئلة تتمحور كلها حول هوية الكيان الصهيوني وهو السؤال الذي تتوقف على أساسه مناظير الصراع القائم بين حركة التحرير الوطني الفلسطيني وبين ذلك الكيان سواء أعدت تلك الحركة من مكونات حركة عربية أشمل أم مخصوصة بفلسطين، وهو ما لا يمنع أن تكون لها علاقات بمحيطها القومي العربي تختلف درجة متانتها بين منظور وآخر. و قد تجلت تلك التحولات في ما يهم ما نحاول بلورته هنا في استخدام غير مسبوق لمفاهيم المجتمع والدولة و الشعب للإشارة إلى الكيان المذكور.

وبصرف النظر عن الجانب السياسي الذي يبرر تلك التحولات أو على العكس من ذلك يحجب الشرعية عنها، فإن إشكالية حقيقية تقوم هنا عند محاولة الإجابة عن ذلك السؤال, وهي إشكالية مفاهيمية ذات وقع نظري عميق و ذات تبعات سياسية خطيرة , وهو ما تتطرق إلى بعض جوانبه هذه الورقة من منظور علم اجتماع الهوية والآخرية الذي كنا بدأنا بعد باستكشاف بعض أبعاده في غير هذا الموضع(1).

ينطلق ما هو مقترح أدناه مما كانت وقف عليه اجتهادنا السابق المشار إليه من أن الهويات نتاج للحركات الاجتماعية التي تخوضها الجماعات البشرية جامعة فيها الصفة المطلبية الاحتجاجية إلى الصفة التاريخية في سياق سعيها إلى رسم مصيرها عبر التحكم في التغير الاجتماعي وتوجيهه إلى ما يحقق استراتيجياتها أولا(2) ،وأن ذلك يتوقف من بين ما يتوقف عليه على استجماع مقدرات مادية ورمزية تساعد على توفير ما يصلح لبناء تلك الهوية في خضم صراع رسم خطوط التباين بين الهويات المتكافحة ثانيا(3) , وأن إطار ذلك الاجتماعي والتاريخي المخصوص ييسر على أحد طرفي الصراع ويعسر على الثاني استغلال ما قد يتوافر من منعرجات هي في ما نحن بصدده الحروب الاستعمارية و حركات التوسع الإمبريالي ثالثا(4).ولئن كانت الأمثلة التي اعتمدنا في ما أشير إليه تندرج فيما يمكن اعتباره حركات بنائية بمعنى تحرريها وخدمتها مشاريع الهويات الوطنية و القومية الناهضة فإن ما نعتمده لاحقا يندرج في صنف ما نعتبره حركات سلبية بمعنى استعماريتها أي مكافحتها لبناء الهويات القومية و الوطنية .

أ- في منشأ المسألة اليهودية :

مثلت نهايات القرون الوسطى وبدايات العصر الحديث أطرا تاريخية لنشأة حركات الإصلاح الديني الأوروبية بما مس مختلف الفرق الدينية المسيحية،وكان ذا تأثير في صياغة أخلاقيات ومناقب وسلوكات لم تلبث أن ساهمت في تشكيل واقع مادي في أبعاده الاقتصادية وغير الاقتصادية(5)، وهو ما كان من بين التحولات الاقتصادية والاجتماعية التاريخية التي أفضت إلى بناء الدول- الأمم الرأسمالية في أوروبا.

أما بالنسبة إلى اليهود الأوروبيين فقد كان تأثير ذلك فيهم في وجهة مغايرة تماما(6) حيث تبين أن الموقف الغالب الذي برز لديهم هو أنه لم يكن" لليهودي إلا أن يتخذ موقفا يهوديا تجاه الدولة أي موقف أجنبي . فهو يعارض الجنسية الحقيقية بجنسية واهمة معتبرا نفسه فردا من أفراد الشعب المختار (الترجمة من عندنا) "(7) , بحيث توجب لفهم ذلك أن " لا يبحث عن سر اليهودي في دينه بل عن سر دينه فيه هو ذاته , ذلك أن الأساس اللاديني لليهودية كان دائما الحاجة النفعية الشخصية "(8).

تدفع هذه التنبيهات إلى التذكير بأن ممارسة التجارة بأنواعها وعلى نطاق واسع والتكفل بالأنشطة المالية ذات الصبغة الربوية خاصة كانت تمثل بالنسبة إلى شرائح كثيرة من اليهود قاعدة تميز أخلاقي و ديني لطالما اعتبرته الآداب الأوروبية أساسا واصما و محقرا لهم(9) . و قد كان من شأن الرأسمالية الصاعدة أن نسفت ذلك الأساس المادي للتميز اليهودي إذ بات اله اليهود , و قد كان في اعتبار ماركس هو المال , اله كل المجتمع بدون استثناء وخاصة طبقاته القائدة للتحولات الاقتصادية والمتنفذة سياسيا. كان ذلك يعني أن ذلك الميراث الأخلاقي الديني اليهودي بات رأسمال غير قابل للاستثمار بنفس الصيغ و باعتماد نفس الاستراتيجيات بل بضاعة اعتيادية و مبتذلة في السوق التي كان الجميع، يهودا وغير يهود، يعرضون فيها شبيهاتها .

يتمثل منشأ المسألة اليهودية إذا في مقابلة النخبة الاقتصادية و الفكرية اليهودية انكشاف إلهها عن ماهية دنيوية مادية من طبيعة رأسمالية برفض فقدان تلك "الخصوصية الموهومة " التي كانت تتعمد التزيي بها مستخدمة إياها باعتبارها " رأسمال " إضافيا في

سوق المزاحمة . ومن الدلائل على ذلك عدم نشأة مسألة مسيحية لا بروتستانتية و لا كاثوليكية في أوروبا من ناحية لأن قاعدة ادعاء الخصوصية كانت منتفية وعدم نشأة مسألة يهودية في غير أوروبا وحتى في العالم العربي الإسلامي لأن تحولاته الاقتصادية و الاجتماعية لم تخلق إلها بمثل مواصفات إله الرأسمالية وذلك رغم تاريخية الصراع الديني–الثقافي بين المرجعتين شريعة و حياة .

ومن المعلوم تاريخيا أن تعامل اليهود مع مفردات المسألة اليهودية كما طرحت كان منقسما اتجاهين اثنين هما الدعوة إلى الاندماج وممارسته(10) من جهة و الدعوة إلى الانفصال عن كل الآخرين أي عن الأغيار(11) و الإصرار على استمرار التجمعات الغيتوية المتعمدة العزلة من جهة ثانية.ولم يكن الاتجاهان منقطعين عن التراث الديني اليهودي بل كان كل واحد منهما يمثل استمرارا ما له من منحى معين.ولكن اتجاه الاندماج فشل تاريخيا بحيث لم يعد يذكر تقريبا إلا في كتب التاريخ وهو ما يدل دلالة قوية على أن استثمار الاتجاه الثاني للظرفية التاريخية كان أكثر قدرة على استجماع مقومات الحركة الاجتماعية اقترابا بها من نقطة بلوغ أهدافها الاستراتيجية .

ب – الحركة الصهيونية باعتبارها حركة اجتماعية :

يحتل الدين اليهودي أهمية مركزية بالنسبة إلى الحركة الصهيونية ذلك أن أساس الأفكار الصهيونية مستمد من المعتقدات التي تكون الدين اليهودي سواء أكان نسق تلك الأفكار مبنيا على شاكلة الصهيونية الدينية التي تقول بالوحدة الدينية الجامعة ليهود كل أنحاء العالم باعتبارهم شعب الله المختار و أمته المقدسة , أو متمثلا في الصهيونية الثقافية التي توظف ما تختلقه من تواصل تاريخي ثقافي لليهود عبر الأزمان والأقاليم المتباعدة و الحضارات المختلفة التي طبعت اللغات والعادات وحتى الطقوس التي تتداولها مختلف التجمعات اليهودية , أومن قبيل الصهيونية الاقتصادية– السياسية التي تعتمد الدفاع عن رأس المال الذي يمتلكه يهود و الدفاع عن مصالحه المادية وغير المادية بوصفه رأس مال يمكّن من ربط مصالح مشتركة ما بحيث يحقق وجود قاعدة اقتصادية مخصوصة مبنية من تكتلات تجارية وبنكية وصناعية قاسمها المشترك غير الاقتصادي هو هوية أصحابها الدينية.

شهد القرن التاسع عشر وأواخره خاصة تحركات دعائية فكرية وسياسية وتنظيمية انضوت كل واحدة منها تحت واحدة من تلوينات الصهيونية المشار إليها.ولقد كانت الظرفية التاريخية,وهي بالضبط ظرفية نشأة المسألة اليهودية , دافعة نحو تيسير استثمار الحركة الصهيونية مقومات ثلاثة في تطورها هي :

* الغيتو (الأحياء و الحارات اليهودية المنعزلة عن باقي الفضاء الحضري) كفضاء اجتماعي بشري ذي خصوصيات دينية ثقافية ,

* القاعدة الاقتصادية السياسية المبنية على خصوصية مصالح رأس مال الدائنين باليهودية،

* منعرج القرن التاسع عشر السياسي التاريخي المتمثل بنشأة الإمبريالية الأوروبية.

بدأت الحركة الصهيونية في شرق أوروبا لأنها كانت المنطقة الأكثر عسرا و تفاوتا وعدم انسجام فيما يخص التحولات الاقتصادية والاجتماعية المؤدية إلى الرأسمالية بما خلق جيوبا ثقافية (نزعات دينية واعتقادية من بينها تلوينات يهودية كثيرة(12)) وسياسية (تواصل أشكال حكم إقطاعية أو شبه إقطاعية) واقتصادية (تواصل أشكال إنتاج ما قبل رأسمالي وربوية أساسا) لم تسوها آلية الإدماج القسري الرأسمالية.وقد حكمت تلك التطورات بالعقم على حركة " الهاسكالاه" (كلمة عبرية تعني التنوير) بوصفها حركة اجتماعية ذات صفة ثقافية غالبة أنشأها يهود متأثرون بحركة التنوير الأوروبي وسعوا عبرها إلى تقريب اليهود من محيطاتهم الثقافية والحضارية التي كانوا يعيشون بين أحضانها وإخراجهم من انغلاقهم على ذواتهم وفي غيتواتهم إذ لاقت تلك الحركة كما هو معلوم معارضة شديدة من الأوساط الحاخامية الدينية في شرق أوروبا خاصة .

ولكن بدايات الحركة الصهيونية الثقافية في شرق أوروبا وصبغتها الاقتصادية الغالبة في غربها لم تمنعها من أن تكتسب صيغة سياسية ظلت تطغى أكثر فأكثر بالتوازي مع تتنقل مواقع فعلها تبعا لتحول مراكز ثقل السياسة الإمبريالية في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين من اسطمبول إلى لندن إلى باريس إلى واشنطن. فقد اختلطت في شعارات مؤتمر بازل بسويسرا (1897)والذي كرس الميلاد التنظيمي الأبلغ أثرا للحركة الصهيونية وقدمها على أنها الحل الأمثل للمسألة اليهودية، الصيغ الدعائية الدينية بالثقافية

والسياسية والاقتصادية من استغلال العنف الذي مارسته الطبقات ضحية الرأسمالية ضد اليهود لاعتقادها في مسؤوليتهم عن تدهور أحوالها مرورا بتثبيت الاعتقاد في "الأرض الموعودة المقدسة" ووصولا إلى التركيز على " أرض الجذور التاريخية " وتأكيد ضرورة الارتكاز على قاعدة اقتصادية-سياسية ثابتة تتخذ شكل الدولة.ولذلك ركز الخطاب التوجيهي الذي ألقاه هرتزل في المؤتمر على :

- مقولة الوطن القومي كحل غير اندماجي للمسألة اليهودية.
- استيطان اليهود المتدرج والمتسلل لأرض فلسطين .
- الحصول على اعتراف دولي وضمانات معترف بها على نطاق واسع .

كان المؤتمر بتعيينه موقع ذلك الوطن المفترض في فلسطين ومن وجهة ما يمس بمسألة الهوية تكريسا لأسطورة استمدت من التراث الرمزي اليهودي وهي أسطورة أرض الميعاد وتحديدا لشكل ذلك الاستثمار وهو الاستيطان.وكانت الصهيونية إذا وبالمواصفات التي أوردنا حركة اجتماعية يتمثل مطلبها الاجتماعي في تمتيع اليهود بوضع خاص، ومطلبها السياسي في بناء كيان سياسي يكرس مقولة "الوطن القومي " على ما تعتبره "أرض الميعاد ".وقد عنى ميلاد تلك الحركة تحولا في استثمار المقدرات الرمزية والتعبوية المتوفرة على نحو مكن من الانتقال :

- من المنظور الديني-الأخلاقي إلى المنظور الثقافي-التاريخي.
- من التطلع الديني إلى البرنامج السياسي-العسكري .
- من التشتت إلى التوحد ومن الفوضى إلى الانتظام .

كانت المقومات التنظيمية الناشئة تكسب الحركة تجسدها المؤسسي وتضيفه إلى المقومات الثقافية-السياسية والمالية-الاقتصادية والبشرية التي تمكنت الحركة من تجنيدها طوال فترات تطورها السابقة عن نهايات القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين .

جـ - الأسطورة و الكيان :

اعتمدت الحركة الصهيونية تهجير اليهود إلى فلسطين لتحقيق الاستيطان.ويعبر عن ذلك بالعبرية بلفظ " عالياه" وعن المهاجرين بلفظ " عوليم " وهو لفظ مستمد من العهد

القديم ويعني "الصعود إلى الأرض " و من بين معانيه الثقافية-السياسية الصهيونية الحديثة الصعود إلى السماء و الصعود إلى المعبد و الصعود إلى أرض الميعاد. يجسد هذا المثال توظيف الحركة الصهيونية الميراث الديني في بناء ثقافة هي مزيج من الإيديولوجيا والسياسة كانت مصدر بناء المقدرات الرمزية الضرورية لميلادها وتطورها.وقد اعتمدت الحركة الدين اليهودي المختلف عليه بين اليهود القدامى والمجددين وبين الأوروبيين وغير الأوروبيين وبين الغربيين والشرقيين مصدرا لبناء مقدراتها الرمزية لأنه الرابط الوحيد الذي أمكن عقده بين من لم تجمع بينهم وحدة سكانية ولا أرض موحدة ولا لغة مشتركة ولا وقائع تاريخية موحدة ولا وحدة اقتصادية بحيث لم يكن هناك شعب ولا قومية تجمعه كما كان الحال بالنسبة إلى الحركات القومية الأوروبية أولا ثم غير الأوروبية مهما كان اختلاف تجسد تلك المقومات تاريخيا بين قومية وأخرى أو بين أمة وأخرى(13).

كان التهجير و الاستيطان في مستوى ثان تنفيذا لمخطط إكساب الرمز الديني-الثقافي بمواصفاته تلك شرعية وذلك بخلق واقع داعم له.بنى اللورد بلفور عبر وعده بتيسير بناء "الوطن القومي" على أرض فلسطين"شرعية" سياسية وقانونية للكيان الموعود اعتمادا على واقع الاحتلال البريطاني لها. وزيادة على المسؤولية الأخلاقية لقوة كانت تبرر احتلالها ذاك بأنه تمدين للشرق الهمجي كما كانت صورته آدابها وصحفها وفلسفتها وفنونها(14) فإن ذلك كان يبني على واقع غير قانوني واقعا أقل تبريرا وهو ما يترجم عنه ذلك التوصيف الذي يتسم بالصواب والدقة في آن معا والذي رأى فيه أنه أعطية ممن لا يملك لمن لا يستحق.ومن الواضح أن مدار ذلك هو مسألة الهوية وشرعية ادعاء امتلاك مقوماتها حيث أن المثال الذي بين أيدينا يبين أن نسقا محكم الإغلاق من عمليات تبادل إكساب الشرعية و التبرير تم بناؤه بتوجيه استراتيجي من الحركة الصهيونية بحيث أمكن تبرير أسطورة أرض الميعاد عبر التهجير و الاستيطان وتبرير الاستيطان عبر الادعاء بتاريخية الوجود.

وبالفعل فإن ما كان واقعا بالتوازي مع ذلك هو توجه التخطيطات الصهيونية نحو تأكيد تصاعد الهجرة و تعزيزها بنية خلق واقع على الأرض عبر استغلال أية سانحة بما في

ذلك نتائج الاتفاقات السرية مع الدوائر ثم السلطات النازية في ألمانيا والخاصة بتهجير اليهود الألمان نحو فلسطين(15).

يرتبط تحويل ذلك الوعد إلى واقع ارتباطا مباشرا بتلك الحرب التي شنتها سنة 1948 الفرق المسلحة و المليشيات أمثال "الهاغاناه" و "شتيرن" و "الأرغون" (و منها ما كانت فرقا خاصة داخل جيش الاحتلال البريطاني في فلسطين) من أجل تهجير ما لا يقل عن 750 ألفا من السكان الأصليين و ذلك بهدف إيجاد تبرير ما بعدي لذلك الشعار الصهيوني القائل بأن ذلك كان إعطاء أرض بلا شعب لشعب بلا أرض.وتماما كما كان الشأن في مناسبات ومواقع أخرى تساندت فيها الحرب والثقافة من أجل تبادل التبرير والتسويغ، تساندت الأسطورة الملفقة حول التواصل التاريخي لليهود على أرض فلسطين(16) مع واقع الاستيطان و تهجير السكان الأصليين بالقوة المسلحة لتبرير قيام الكيان الذي أعطى الاستيطان شكله المؤسس .

شهدت سنة 1948 بناء الكيان الذي جسد الشعار الذي وضعته الحركة الصهيونية لتحقيق مطلبها السياسي المشار إليه أعلاه وقد تضمن نص التصريح الذي أعلن ذلك ما يلي : " بثقتنا في رب إسرائيل نوقع بأيدينا كشهود على إعلاننا هذا..." . أكد ذلك التصريح كما فعلت ذلك وقائع أخرى عديدة اعتماد تلك الصلة المبنية بين اليهودية والصهيونية في بناء التبرير السياسي والإيديولوجي والديني لذلك الإنجاز، وهو ما يزيده تأكيدا ما دار من مناقشات حول اسم ذلك الكيان أيكون "صهيون" أم "يهودا" أم "الدولة اليهودية" أم "إسرائيل" و هي كلها تسميات ذات رنين ديني واضح(17) .

تتكاثـــر منذ سنوات تلك الكتابات التاريخية التي تكشف تلازم الروايات والقصص وخيالات الذكريات الموضوعة ما بعديا حتى تعد من لبنات الذكريات الجمعـــية اليهوديـــة(18) , أي تكشف ما تم من أسطرة لكينونة تاريخية مختلقة .و سواء أتعلق الأمر بالتاريخ القديم(19) أو الحديث(20) , فإن تلك الحرب التي شهدتها سنة 1948 وكذلك تلك الأخريات التي عاضدتها بعد ذلك كانت , و بنفس الدرجة , حروبا بهدف احتلال الأرض و استيطانها و حروبا بهدف محو آثار ما يمكـــن أن تحاجـــج بـــه الذاكـــرة التاريـــخ يوما ما(21). تكتسب الإبادة , إبادة الآخر العدو (الأغيار) , في مثل

هذه الحروب معنى خاصا وهو السعي إلى نفي أية إمكانية لقيام ذلك الآخر من جديد متذكرا و مطالبا , أي السعي إلى نفي إمكانية أن يستند الواقع المراد طمسه و إسكاته إلى قوة بشرية هي بنفس الآن حياة و ذاكرة ومؤسسات و مشروع سياسي أي هوية. ذلك هو تفسير التلازم القائم بشكل لا ينفصم بين الممارسة السياسية الصهيونية و الإرهاب وتعمد ارتكاب المجازر(دير ياسين و كفرقاسم و صبرا و شاتيلا وقانا و حمام الشط وصولا إلى جنين و نابلس) . يتجاوز فعل الإبادة هنا معناه العادي كما مارسته القوات الفرنسية في الجزائر مثلا أو كما مارسته القوات الأمريكية في فيتنام أو العراق أو أفغانستان لأنه يستند إلى إيديولوجيا دينية تستمد من التوراة تبرير قتل الأغيار ساكني المدن التي يهبها الرب إلى شعبه المختار و أمته المقدسة(22) .

تبرز الوقائع التي على الأرض بعد أكثر من خمسين سنة على تجسيد المشروع الاستيطاني الصهيوني على أرض فلسطين أن صراع الهويات ذاك لم يسر في نفس الاتجاه الذي ظلت توجهه نحوه استراتيجية طمس الذكرى لردم الواقع أو محو الثاني لردم الأولى . فمن الواضح أن مجال تحرك حركة التحرير الوطني الفلسطيني بما تستجمعه هي نفسها من مقومات الحركات الاجتماعية الشاملة آفاقا سياسية يمتد من الشعر والغناء إلى الكفاح السياسي والعسكري و من خيوط تطريز الألبسة التقليدية إلى نسج تآلف طموحات استعادة الأرض التي تسكن أجيالا باتت سمتها المميزة المعلومة عالميا أنها أجيال كفاح. و على الرغم من أن الكيان الصهيوني لا حدود قائمة له و لا دستور و لا قانون حيث يعتبر نفسه موقع استيطان كل يهود العالم و ذلك بموجب قانون الهجرة (5-7-1950) فإن صبغته هذه المفتوحة على التوسع و الاستيطان لم تمكنه من حل أزمة الهوية التي تمس أسسه نفسها.

د- أزمة الهوية :

يجسد الكيان الصهيوني نتيجة ما توصلت إليه الحركة الصهيونية من أرخنة للأسطورة أي تجسيدا لما تحكيه في الواقع و التاريخ، باعتبارها حركة كانت اجتماعية في أطوارها الأولى ثم باتت سياسية متشعبة المستويات و الأهداف، و يمثل الكيان الصهيوني

بصفته تلك تجمعا من المهاجرين مختلفي الجذور التاريخية و الأصول القومية و القسمات الثقافية الحضارية. فقد انضافت إلى ما أشرنا إليه منهم موجات أخرى أكثر تباعدا من الأولى شأن المهجرين من إيران والأرجنتينيين ومن الفالاشا الأثيوبيين, وهو ما عمق أكثر طابع التجميع القسري اللامتجانس، وذلك بالإضافة إلى أن مختلف بحوث المؤرخين تكاد تجمع على أن اليهود لم يكونوا شعبا موحدا على مر التاريخ بل جملة من الطوائف المنعزلة داخل فضاءاتها الخاصة في المدن و المجالات التي عاشوا فيها.

تؤدي هذه التركيبة السكانية الهجينة إلى سياسات يمتزج فيها الاضطهاد القومي تجاه العرب والاستبعاد الديني تجاه المسلمين والمسيحيين والفصل الإثني تجاه اليهود ذوي الأصول غير الأوروبية وعلى أساس اللون والعرق،وتنقسم القوانين بين دينية توراتية وتشريعية حاخامية (تسير سلوك اليهود الظاهر 613 شريعة دينية تحريمية تخص المآكل ومواقيت العمل والزواج وغيرها وهي كلها شرائع معترف بها ومسطرة في القوانين الرسمية السارية) وأخرى مدنية, كما يخضع الأفراد إلى قوانين وتراتيب تجعل منهم كلهم جنود احتياط وهو ما ييسر فهم طبيعة الاستيطان ومنطق بناء الكيان نفسه(23). ومن ناحية أخرى تختلف ألسنة ولغات المتحدثين بين العبرية واليديشية والروسية والبولونية والأنقليزية وغيرها وتتجدد التناقضات القديمة بين الاتجاهات الدينية المختلفة والتيارات السياسية المتصارعة في تلك الاختلافات بين الدينيين واللادينيين ممن يجتمعون على العمل على تثبيت دعائم الكيان وعلى صناعة الخوف وسكنى الدبابة كما يقول محمود درويش(24). تتجاوز مختلف هذه التناقضات مجرد ما يعتري الكيانات القومية و السياسية من نتائج حركة التمايزات الاجتماعية الاعتيادية و مساراتها، لأنها تختلف عنها لا في درجة الحدة ولكن في الطبيعة إذ تؤدي مختلف تلك الاعتبارات إلى النظر إلى الاستيطان باعتباره حركة متناهية في التاريخ حيث لا يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية له وقد وصل بعد إلى أقصى حد ممكن له وملغومة اجتماعيا على المستويات الإثني والديني والقومي والسياسي وبما يطرح بشكل حاد مستقبل القوة البشرية (المهجرين) اللازمة لديمومة الكيان فضلا عن آثار الهجرة المضادة وأزمة الهوية التي تلف وجودهم .

تعاش أزمة الهوية المتجسدة في هذا الواقع المتشظي على مستوى الفرد أولا حيث ينكشف له انتماؤه إلى الكيان عن مجرد جنسية لا تعفيه من الانخراط الإجباري في تلك الصراعات التي عرضنا بعضها وعلى مستوى الجماعة ثانيا حيث لا توحدها إلا آخريتها المحاربة و الساعية إلى توسيع مداها من النيل إلى الفرات وعلى مستوى الكيان ذاته ثالثا إذ هو يتأرجح بين كيانيته الصهيونية المخصوصة ذات الأساس الديني و بين اضطلاعه بأدوار تحتمها عليه صورة الدولة الاعتيادية التي يريد الترويج لها بعلاقاتها المتشابكة مع القوى السياسية و الاقتصادية الكبرى في العالم من جهة أولى و يتمزق بين ضرورات ديمومته التي تستوجب إقامة علاقات عادية ما أمكن مع المحيط الذي زرع فيه والضرورات المقابلة التي تفرض عليه تأكيد صبغته العسكرية والاستيطانية من جهة ثانية , وتلك الضرورات الأخرى التي توجب عليه إقامة قاعدة اقتصادية-سياسية صلبة ومتنامية الاستقلال والضرورات المقابلة في شد أواصر ارتباطه بالقوى التي مثلت ولا تزال دعامات وجوده وضماناته لأنه يعضدها في الاضطلاع ببعض مهامها من جهة ثالثة .

تمثل أزمة الهوية في أبعادها المتشابكة هذه أساس السياسات الصهيونية التي ما كادت تتحقق خلال العشرية الأخيرة من استنفاد إيجابيات عملية التسوية السياسية من اعتراف وتطبيع واختراق سياسي وثقافي وربط مصالح اقتصادية مع بعض الأوساط العربية حتى شرعت في استغلال خطط الحرب الجديدة على الأوطان والشعوب والقوميات والأمم والهويات والتي تخاض باسم مكافحة الإرهاب. إن الأفق الإستراتيجي المنظور لذلك هو محاولة العمل المستميت على ردم ما تولد عن سياسات العقد الماضي من مزيد تعميق أزمة الهوية وتأجيج التناقضات الناسفة والتي عرضنا بعضها أعلاه . فلقد أثبتت التجربة السياسية الصهيونية أن عقلية الغيتو والحفاظ على التباعد العدائي مع الأغيار هي مادة اللحمة في اختلاق الهوية اليهودية- الصهيونية وتكريسها. وليس هذا الاتجاه مقصورا على بعض النخب. فلئن كانت التصورات المخيالية والتمثلات الرمزية السائدة في البلدان الرأسمالية سائرة بشكل عام في اتجاهات تتخذ من صراع الهويات (قومية , ثقافية , دينية ، إقليمية انفصالية ,...) قاعدة لها مما تدلل عليه نتائج مختلف أصناف الانتخابات

ودرجاتها مثلا , فإن ذلك يتخذ في الكيان الصهيوني أبعادا أخرى اجتهدت هذه الورقة في بيان بعضها و توضيح أسسها التاريخية-الاجتماعية .

خـــاتمـــة:

تفرض أزمة الهوية بمفرداتها هذه على الكيان عودات متتالية لانتهاج تكتيك الاستعمار الاستيطاني المفتوح المعلن بعد كل فترة يمارس فيها اضطرارا تكتيك المواربة أو التمويه الدعائي أو التنازلات الشكلية . و لكن ذلك هو بالضبط مفصل حياة الكيان نفسه لأن المراوحة بين نوعي التكتيكات في إدامة الحركة لا ينكشف إلا على انخراطه القسري الكامل في صراع هوية بانية أصيلة تاريخا و مشروعة سياسة وتحررية قومية ضد هوية مختلقة تاريخا و لاشرعية سياسة و استعمارية-استيطانية واقعا مما لا يخفى تمثيله النموذجي لجوهر كفاح الإنسانية في العصر الحديث. ومن الواضح أن ما اقترحنا أعلاه يستند إلى فهم للهويات على أنها بناء في التاريخ يسعى إلى التجسد في جغرافيا الأوطان و القوميات في ما يهم العصر الحديث من مسارها، و يبدو لنا هذا الاستنتاج من جهة أولى مكملا لما كنا وقفنا عليه في محاولات سابقة أشرنا إليها، و مدعاة لمزيد البحث في إجرائيته في ضوء أوضاع أخرى من جهة ثانية.

الهوامـــش والاحالات:

(1) منير السعيداني, الأنا و الآخر في الفكر التونسي الحديث , أطروحة دكتورا في علم الاجتماع , إشراف الدكتور الطاهر لبيب , كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية, تونس، السنة الجامعية 1999-2000، 364 صفحة مرقونة .

(2) TOURAINE(Alain) , La parole et le sang , Odile Jacob, 1988.

(3) منير السعيداني , الحركات الاجتماعية و تمثل الهويـــات , المجلـــة التاريخيـــة المغاربية , مؤسسة التميمي للبحث العلمي و المعلومات , تونس , العـــددان 102-103 , مارس آذار 2001 , صص277-300.

(4) منير السعيداني ، الآخرية و الحرب , الآخر داخل الخطاب و خارجه , كتابـــات معاصرة ، العدد 45 , المجلد الثاني عشر , تشرين الثـــاني – كـــانون الأول , بيـــروت, 2001 , صص29-43.

(5) WEBER (Max) , L'éthique protestante et l'esprit du capitalisme(1920) , Plon , Paris , 1964.

(6) MARX(Karl) , La question juive , Union Générale d'édition 10-18 , Bardo , 1968 .

(7) المرجع نفسه، ص14.

(8) المرجع نفسه، ص49.

(9) قد تكون مسرحية تاجر البندقية لوليام شكسبير من أبرز الأمثلة على ذلك.

(10) عبد الوهاب محمد المسيري , موسوعة المفاهيم و المصطلحات الصهيونية: رؤية نقدية , مركز الدراسات السياسية و الاستراتيجية بالأهرام ، القاهرة , 1975, ص88.

(11) نفسه , ص 78.

(12) نفسه , الصفحات 451- 459.

(13) صدرت موجات المهاجرين منذ1882 وحتى منتصف الأربعينـــات عـــن روســـيا وبولونيا ورومانيا ولم تبدأ موجات المهاجرين من البلاد العربية المختلفة كاليمن والعـــراق

وليبيا والمغرب ومصر وتونس إلا لاحقا.ولا تكتسب الأرقام في هذا المجال أهميتها إلا متى توضح منها مثلا أن عدد اليهود الذين غادروا روسيا وبولونيا ورومانيا من 1882 إلى1914 بلغ أربعة ملايين لم يتوجه منهم إلى فلسطين ويستوطن فيها إلا 100 ألف على الأكثر, وأن عدد اليهود المهجرين إلى حدود بداية الثلاثينات لم يكن يمثل إلا سدس عدد السكان الأصليين من العرب وأن عدد اليهود في فلسطين لم يبلغ إلى حدود 1948 إلا 650 ألفا.

(14) Edward SAID , L'Orientalisme , L'Orient crée par l'Occident , trad. Catherine MALMOUD, Seuil, Paris, 1980.

(15) حيث هاجر بفعل تلك الاتفاقات (من بينها " معاهدة **الهعفراه** ") حوالي 60 ألف بين عامي 1933 و1936. (موسوعة المفاهيم و المصطلحات ...، مصدر السابق) .

(16) نفس المصدر السابق

(17) رشاد عبد الله الشامي , القوى الدينية في إسرائيل بين تكفير الدولة و لعبة السياسة , المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، سلسلة عالم المعرفة , عدد 186 , الكويت , 1994 , ص 48

(18) Keith W. WHITELMAN, The Invention of Ancient Israel : The Silencing of Palestinian History , New York, 1996 مذكور في , ادوارد سعيد, التلفيق, الذاكرة و المكان , في , الكرمل , شتاء ربيع2002 ,70-71 , رام الله , فلسطين, صص92-108

(19) أحمد سوسة , العرب و اليهود في التاريخ ...

(20) روجيه غارودي , محاكمة الصهيونية الإسرائيلية , دار الشروق , القاهرة , الطبعة الثانية , 2000 .

(21) ادوارد سعيد , التلفيق, الذاكرة و المكان , مصدر سابق ، ص100 .

(22) روجيه غارودي , محاكمة ... مصدر سابق .

(23) رشاد عبد الله الشامي , إشكالية الهوية في إسرائيل , المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب , سلسلة عالم المعرفة , العدد 224 , الكويت , 1997.

(24) جريدة الشروق التونسية 21-04-2002 , ص ص18-19 .